دور الطرق الصوفية في جهاد أهل تبسة خلال القرن 19 م.
دراسة تاريخية من خلال المؤلفات العسكرية الفرنسية.

عبد الوهاب شلالي أستاذ مساعد

قسم التاريخ.

Résumé :

Cette étude historique trace l'histoire des confréries religieuses algérienne et étudie son rôle sociale, politique, et culturel dans notre société du 16e au 19e siècle. Puis elle essaie d'expliquer pourquoi les officiers des bureaux arabes, comme -DE Neuveu, Brosselard, Louis Rinn ... etc., lui avaient donné beaucoup d'intérêt et sont devenus des spécialistes en la matière. Enfin elle termine par donner une idée claire sur son rôle positif dans l'insurrection populaire algérienne à travers son rôle important dans l'insurrection Tébessienne au 19e siècle.

مقدمة:

يقـــول العلامـــة ابن خلدون أن: « العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضـــارة والسبب في ذلك أن تعليم العلم كما قدمناه من جملة الصنائع وقد كنا قدمنا أن الصنائع إنما تكثر في الأمصار وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف يكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة لأنه أمر زائد على المعاش[1] ».

[1] عـــبد الـــرحمان بن خلدون: « مقدمة ابن خلدون »، الجزء1، ط. 5، دار القلم، بيروت 1984، ص 435- 436.

وإذا كانت مصر قد عرفت في عهد الحكم العثماني ازدهارا ثقافيا واهتماما كبيرا من السلطنة بالعلم والتعليم نظرا لأن:« أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم، لما له عليهم من الرق أو الولاء. ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته. فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شركا لولدهم ينظر عليها أو يصيب منها ... فكثرت الأوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها والله يخلق ما يشاء[2].»

فإن الوضع في الجزائر كان مختلفا تماما رغم خضوعها هي الأخرى للحكم ذاته. فقد عرفت بلادنا خلال ذلك العهد انحطاطا في الثقافة، وضعفا في العقيدة، كان سببه انشغال حكامها بالصراع مع الأوربيين من أجل السيطرة على الطرق التجارية في البحر المتوسط، وعدم وجود جزائريين متنفذين في سدة الحكم، وانعدام التعليم الحكومي.

عندئذ بدأت الطرق الصوفية تنتشر في بلادنا، وتشيّد الزوايا في مختلف أرجاء الوطن، وتحل محل الدولة في التكلف بمهمة تعليم النشء لغتهم العربية وتعاليم دينيهم الإسلامي الحنيف، وتزرع بين الناس حب الله ورسوله والإكثار من الطاعات والزهد في الدنيا والجد لأجل الآخرة.

وتجدر الإشارة إلى أن نوع الزوايا الذي انتشر في بلادنا، هو النوع الذي أسماه الباحثون بالزوايا المرابطية، التي كانت تجمع بين العديد من الوظائف.

---

[2] مصدر نفسه، ص 434.

فهـــي: « مؤسسة للطلبة ونشر العلم، ولاستقبال الغرباء، والبؤساء والمحرومين، ومكـــان للزوار لتقديم الصدقات، والمسافرين المقطوعين والمشرّدين[3]»، أي أنها كانت تجمع بين نشر التعليم الديني والجهاد في سبيل الله، وخدمة الفقراء والغرباء.

ويضـــيف لهـــا بعض الباحثين الفرنسيين مهاما أخرى مثل: « إيواء الهاربين من العدالة، أو الفارين من العدو، الذين يجدون فيها الأمن والملاذ[4] ».

ومـــنهم مـــن رأى فيها: « مكانا يجد فيه المسلمون " الإخوان " الفكرة الدينية المتعصبة، التي من خصائصها الجهاد الدائم ضد الكفار (الفرنسيين) ... وأنها لم تتوقف عن النفخ في روح الجهاد أبدا[5].»

وبينما أحصى بعض الباحثين 24 طريقة صوفية فاعلة في الجزائر، كانت متواجدة قـــبل دخـــول الاستعمار الفرنسي؛ أشار مؤلف فرنسي إلى وجود 23 طريقة صوفية كانـــت ممـــثّلة في عهده في الجزائر[6]. وباستثناء الطريقة الرحمانية والتيجانية، فإن البقية الباقية تأسست خارج أرض الوطن ثم انتقلت إلينا إما من المشرق أو المغرب[7].

---

[3] د. ســـعد الله أبو القاسم: « تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الرابع: 1830- 1954 »، دار الغرب الإسلامي، ط.1، 1998، ص. 26

[4] شيربونو، نقلا عن سعد الله: مرجع سابق، ص. 27

[5] هنري قارو، نقلا عن سعد الله، مرجع سابق ص. 27-28

[6] Depont (O) & Coppolani (X): « Les Confréries Religieuses Musulmanes», Jourdan imp-lib, Alger 1897, p. XXII

[7] سعد الله: مرجع نفسه، ص28 .

المبحث الأول: أسباب اهتمام الاستعمار الفرنسي بالزوايا في الجزائر.

لم يتوقف الاستعمار الفرنسي عند عمليته الإجرامية باحتلال أرض الجزائر والادعاء بأنها جزء لا يتجزأ من فرنسا، بل سعى إلى استعمار الفرد الجزائري في حد ذاته، وإرغامه على التسليم بالأمر الواقع، من خلال الغور في أعماق بنيته الاجتماعية، وإخضاعها لحقل الدراسات السوسيولوجية، والأنثروبولوجيا، والإتنولوجيا[8] ذات الخلفية الثقافية الأوربية المتميزة بعقدة الاستعلاء والتفوق على بقية شعوب المعمورة.

وإذا كانت مهمة السيطرة على البلاد قد أوكلت إلى القوات العسكرية، فإن مهمة السيطرة على العباد قد أوكلت إلى ضباط المكاتب العربية، والمراكز العسكرية، وإلى بعض موظفي الإدارة الاستعمارية مثل المتصرفين الإداريين في البلديات المختلطة. فقد أنجز كل هؤلاء الكثير من التقارير المفصلة عن مختلف القبائل، والأعراش، والجماعات الجزائرية المقيمة في مناطق نفوذهم. كما اضطلع بتلك المهمة أيضا باحثون فرنسيون في ميادين العلوم الاجتماعية، والإنسانية.

وتجدر الإشارة إلى أن جل الدراسات التي أنجزت حول الطرق الصوفية في الجزائر أعدها موظفون سامون بحكومة الجزائر العامة، وتحت الرعاية السامية للحكام العامين*.

فقد: « أوحت الدراسات التي قام بها الفرنسيون حول الجمعيات الدينية الجزائرية، سواء منهم العسكريون مثل النقيب دي نوفو، أو بعض المدنيين، بأن" الإسلام الصوفي ظل قوة تجنيدية يجب إلجامها " ... إن مهمة العسكريين في بدء أمرها كانت

---

[8] الإيتنولوجيا: هي فرع من الدراسات الأنثروبولوجية التي تهدف إلى تحليل وترجمة أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين المجتمعات والثقافات.

* أنظر مقدمات الكتب الفرنسية التي ألفت حول الطرق الصوفية في العهد الاستعماري.

تتمثل في معاينة الخصم لتحديد الصراع أو المجابهة، وبالتالي كان لابد من القيام بدراسة قبلية عنه، ثم بعد أن عين الخصم وهوجم وهزم، كان لابد من رسم صورة له، وبعد الانتهاء من هذا العمل، كان عليهم تسخير الاكتشافات المحصورة لمواصلة " سياسة المسالمة " وفق الطرق المقترحة من (الجنرال) قاليبني[9].»

ويأتي كتاب النقيب دو نوفو* (P.E. DE Neuveu) الذي صدر في سنة 1845، في مقدمة المؤلفات الفرنسية التي اهتمت في العهد الاستعماري، بدراسة الطرق الصوفية في الجزائر[10]. ثم يليه كتاب بروسلار (C. Brosselard) الصادر في سنة 1859، حيث تطرق إلى كيفية تشكلها ونشأتها في بلادنا[11].

اعتمدت الدراسات التي قدمها كل من دونوفو، وبروسلار على: « التقارير المتناثرة والروتينية للمكاتب العربية والمراكز العسكرية ... وأثرت في أعمال لويس رين، وديبون، وكوبولاني ... كما أنها بلورت مفهوم الطرقية في الجزائر، ووضعته داخل تصور وقالب فرنسي لم يحيد عنه. حيث شكلت نموذج الطرقية انطلاقا من الأفكار ذات الترتيب الديني والطائفة السرية[12].»

---

[9] فيليب لوكا وجون كلود فاتان: « جزائر الأنثروبولوجيين نقد السوسيولوجيا الكولونيالية.» تر، محمد يحياتن، بشير بولفراق، وردة لبنان، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، ص. 12-14

* كان يشغل منصب مدير المكتب السياسي لحكومة الجزائر العامة.

[10] أنظر:

De NEUVEU (P. E): « Les Khouans, ordre religieux chez les musulmans de l'Algérie », imp. Guyot, Paris 1845, Jourdan, Alger 1913.

[11] أنظر:

BROSSELARD (C). « Les khouans. De la constitution des ordres religieux musulmans en Algérie», Tissier, Alger, 1859.

[12] SALHI Brahim: Site internet.

كما أعد هاذين الكاتبين الشكل العام للطرق الصوفية، حيث باتت: « ذات ميل سياسي — ديني، وتنظيم متسلسل، تتميز بالسرية، وتتمتع بروح التضامن الذي يتعدى حدود القبيلة أو الوطن، وبالانضباط، والطائفية، وبممارسة رقابة كاملة على السكان. فالأمـــر صـــار متعلقا من خلال المفردات المستعملة هنا بكنيسة حقيقية ... في الواقع كانـــت جل تلك المؤلفات التي تدخل ضمن إطار الحقل الثقافي للاستعمار متجهة نحو ضـــرورة تثبـــيت أن الطـــرق الصوفية هي أداة سياسية أكثر منها أداة موجهة للتنشئة الدينية[13].»

وأمـــام الانتشـــار الواســـع لأفكـــار الجامعة العربية الداعية إلى مقاومة الهجمة الاستعمارية الأوربية على بلاد الإسلام، أصدر " لويس رين (Louis Rinn)" في سنة 1884، كـــتابا مفصلا عن الطرق الصوفية في الجزائر، التي برأيه: « شهدت منذ مطلع القرن 19 م، تطورا ضخما، وتمارس نفوذا كبيرا على الجماهير[14].»

وقـــد حـــدّد "رين" بوضوح، الهدف من هذا الكتاب حين قال: « ... حتى في الجزائـــر فإن مسألة الطرق الصوفية ليست معروفة [لدينا] كما ينبغي كي تتم حراسة الـــبلد جيدا ... وفي ظل ندرة المؤلفات الفرنسية حول هذه المادة [أي الطرق الصوفية]، أو ضـــياعها، فـــإن هذا الكتاب يقدم إشارات ثمينة لكل الفاعلين الفرنسيين الذين يضـــطلعون في الجزائـــر أو في الخارج، بالمهمة الشائكة والخطيرة في مراقبة التصرفات الدينية أو السياسية للمسلمين[15].»

وفي ظـــل الـــتخوّف الاستعماري من الانتشار السريع للصحوة الإسلامية التي أحدثـــتها أفكـــار الجامعة الإسلامية في أوساط مسلمي آسيا وإفريقيا، بفضل الطرق

---

[13] Ibid.

[14] Rinn (L) : « Marabouts et Khouan, étude sur l'Islam en Algérie », Jourdan Lib-édit., Alger 1884, p. VI

[15] Ibid, p. VII

الصـــوفية، مـــوظفان بـــ: " مصلحة الشؤون الأهلية والموظفين العسكريين" بحكومة الجزائر العامة، كتابا ألّف في سنة 1897بعنوان: " الطرق الصوفية المسلمة"، أشارا فيه إلى خطورة الإسلام الصوفي على التوسع الاستعماري في إفريقيا.

فبرأييهما قد: « تفاقمت حركة التجديد والدعاية الإسلامية في السنوات الأخيرة بشكل يمكن القول معه أن ثلثي إفريقيا صار ينتمي جغرافيا للإسلام[16]»؛ وبالتالي فإنه: « مـــن الممكـــن أن يشكل الإسلام الذي تمثله الطرق الصوفية خطرا حادا على العمل الحضاري [الأوربي] الملتزمين به[17].»

وخـــلال القـــرن العشرين، أعدت مصلحة " اتصالات شمال إفريقيا " بحكومة الجزائـــر العامـــة، دراسة في سنة 1951، بعنوان "الزوايا في الجزائر"، في شكل وثيقة مرقونة، كتب في أعلى غلافها بالبنط العريض عبارة: " سرّي ".

احـــتوت الوثـــيقة على دراسة مفصلة لأربع طرق صوفية كبرى كانت تنشط بالجزائر هي: القادرية، والخلوتية؛ والشادلية، والخاذرية، والزوايا المنبثقة عنها؛ وقدمت نبذة تاريخية عن أصولها.

وذكـــرت أسمـــاء شـــيوخها، ومؤسسيها والمدرسين فيها، وحدّدت وظائفهم، وانـــتماءاتهم السياســـية، ومواقفهم من فرنسا. كما قدمت إحصاءات دقيقة عن كل زاوية، فيما يخص عدد أتباعها، وتلاميذها، وحجم ممتلكاتها ومصادر ثرواتها.

ونســـتنتج من عبارة " سري " الموضوعة على الغلاف، أن الوثيقة كانت عبارة عـــن تقريـــر أمني حول الوضع العام للزوايا في الجزائر، ودرجة خطورتها على الوجود الفرنسي فيها، رفع إلى الجهات المسؤولة. وفي فترة ثورة التحرير الوطني، صدر في سنة

---

[16] Depont, op. cit., p. XIV
[17] Idem.

1956 آخـــر كـــتاب فرنسي عن الطرق الصوفية في الجزائر[18]، ألفه الجنرال " أنـــدري (André)"، المنظـــر المشهور لما عرف في قاموس جيش الجمهورية الفرنسية الرابعة: " بسياسة التهدئة (Pacification)".

وقـــد بين هذا الأخير سبب تأليفه الكتاب في فترة كانت فيها بلاده مهدّدة في وجـــودها بالجزائـــر، بفضل اندلاع الثورة الجزائرية، حيث كتب يقول: « إن دراسة الأعـــراق المقيمة في منطقة ما هي التي تحدد التنظيم السياسي الذي يجب أن يسند إليها والوســـائل الـــواجب تسخيرها لتحقيق " إشاعة السلم ". فالضابط الذي أمكنه وضع خـــريطة اتنوغـــرافية دقيقة للمنطقة التي يحكمها قابل لأن يتم له إشاعة السلم الكامل مشفوعا عن قريب بالتنظيم الذي يلائمه[19].»

ويمكننـــا القـــول أن الإدارة الاستعمارية ظلت، رغم مراقبتها الشديدة للطرق الصوفية، وتغلغلها إلى أعماقها، ترى أنها قد تشكل عليها خطرا محققا، وتكون مصدرا للتحريض على الثورة ضدها.

كما كانت ترى في نفوذ شيوخها: « حاجزا مانعا لوصولها إلى عامة الجزائريين، يجـــب إزالته ــ كما قال الحاكم العام كامبون أمام مجلس الشيوخ في جوان 1894 ــ مثلما أزيل نفوذ الأسر الجزائرية الكبرى في الأقاليم المدنية[20].»

المبحث الثاني: لمحة تاريخية عن انتشار الطرق الصوفية في منطقة تبسة.

تذكـــر إحـــدى الروايات المأخوذة عن أهل تبسة[21] ، قدوم أسرة مرابطية من القيروان تدعى: الشابية إلى المنطقة، واستقرارها فيها في بداية القرن 16 م. ثم حصولها

---

[18] أنظر:

Le général P. J. André: « Contribution à l'étude des confréries religieuses et musulmanes », La Maison des livres, Alger 1956.

[19] فيليب لوكا: مرجع سابق، ص. 64

[20] Depont, op. cit., p. XXI

[21] Bulletin Officiel, année 1907, n° 1859, Imp., Fontana, Alger 1908, p. 1301

تدريجيا على نفوذ سياسي وديني هام إلى مطلع القرن 17 م حيث تلاشى.

وإذا كانت الرواية لم تحدد نوع الطريقة الصوفية التي كانت تتبعها تلك الأسرة، ولا كيف تجاوب معها التبسيون، إلا أن المؤكد فيها هو أن الجارة تونس كان لها تأثير كبير في تلك الأثناء على منطقة تبسة بفعل الموقع الجغرافي، ومتانة الروابط الاجتماعية والاقتصادية التي نسجت عبر الزمن بين سكان الحدود في الدولتين؛ بالإضافة إلى تواجد أهم الزوايا التونسية بالقرب من تبسة، مثل زاوية خنقة سيدي ناجي، وزاويتي نفطة والكاف التونسيتين.

حاولنا في ظل شح المعلومات، وندرتها حول موضوع بحثنا في المراجع العربية، البحث عن انتشار الطرق الصوفية والزوايا في تبسة، في بعض الكتب الفرنسية، التي تعود إلى فترة الاحتلال.

وقد انفرد كتاب الملازم الأول الملحق بمصلحة الشؤون الأهلية بتبسة: "بيير كاستيل[22] "، بتقديم بعض المعلومات عن كيفية انتشار الطرق الصوفية في إقليم تبسة، وأسماء بعض مقدمي الزوايا فيها.

فقد خصص في الجزء الأول من كتابه المذكور، مبحثا أسماه: "معلومات دينية"، تناول فيه بالدراسة طبيعة الانتماء الديني لأهل تبسة، ونوع الطرق الصوفية المنتشرة بين ظهرانيهم.

و لم تختلف تلك الدراسة عن مثيلاتها من الدراسات الأنثروبولوجية التي أنجزها ضباط المكاتب العربية، في إصدار الأحكام المسبقة عن المسلمين الجزائريين، حيث يرى

---

[22] أنظر:

Castel (Pierre): " TÉBESSA, Histoire et Description d'un Territoire Algérien ", t. 1er, Henry Paulin et Cie, Éditeurs, Paris 1904.

"كاستيل" أن: « عدم التسامح والتعصب الديني الذي يميز الجزائريين [في إشارة إلى جهادهم المستمر ضد المحتل الفرنسي] هو نتيجة طبيعية لاعتناقهم الدين الإسلامي[23] ».

أشار الكاتب إلى أن تبسة كانت توجد فيها ثلاث طرق صوفية كبرى هي: الطريقة الرحمانية، والطريقة التيجانية، والطريقة القادرية.

أولا، الطريقة الرحمانية:

تنسب الطريقة الرحمانية إلى مؤسسها سيدي عبد الرحمان بوقبرين؛ وكانت تضم أكبر عدد من سكان تبسة. وكان أتباعها في حياة مؤسس الطريقة: « ... لا يترددون في تحمل مشقة السفر إلى جرجرة لأجل نيل بركاته وأخذ الأوراد منه[24] ». ثم صاروا يوالون خليفته مقدم زاوية قسنطينة: محمد بن عبد الرحمان باش تارزي*.

وقد ازدهرت تلك الطريقة الصوفية في المنطقة مجال دراستنا: « خاصة في الفترة التي عين فيها سي عبد الحفيظ بن محمد، زعيم زاوية خنقة سيدي ناجي** مقدم عليها. ونظرا لسمعته الطيبة في المنطقة خاصة عند اللمامشا، انضمت إليه أفضل عائلات المنطقة، وقيادها وزعماء آخرون من الأهالي[25]. »

---

[23] Castel, ibid, pp. 151-152.

[24] Idem.

* عينه شيخ الطريقة محمد بن عبد الرحمان أثناء حياته، مقدما للزاوية، « *ثم أصبح نائبا عنه في منطقة الشرق والجنوب وحتى في تونس* »، أنظر سعد الله: مرجع سابق، ص. 141

** يعد الشيخ **عبد الحفيظ** من تلامذة الشيخ **محمد بن عزوز** في التصوف، عمل بعد أن صار مقدم الرحمانية في خنقة سيدي ناجي وضواحيها، على نشر التعليم والأذكار الصوفية، وكان مواليا للطريقة العزوزية فرع الرحمانية بنفطة في تونس. كما شارك في ثورة الزعاطشة. استشهد في أحداث بسكرة سنة 1844. سعد الله: مرجع نفسه، ص. 150-151.

[25] Castel, op. cit., pp. 153-154.

كان من بين مريدي الرحمانية في تبسة في تلك الأثناء : أبناء قبيلة أولاد سيدي يحـــي بـــن طالب، وبعض من فرق قبيلة أولاد سيدي عبيد، وقبيلة اللمامشا.وكانت الطريقة تملك زاويتين بالمنطقة لا تزالا تعملان إلى اليوم، هما: زاوية سيد يحي بن طالب بالكويف، وزاوية سيدي عبد الله بمرسط.

ـــ جدول 1 : قائمة بأسماء شواش الطريقة الرحمانية المتنفذين في المنطقة خلال ق. 19 م[26]

الاسم واللقب	الانتماء القبلي
سي إبراهيم بن عثمان (من أولاد شنينة)	برارشه
سي بوعزيز بن مبارك	=
سي الحاج عمار بن محمد من الفراحنه	=
سي أحمد بن صالح بن بوعزيز (من أولاد شامخ)	علاونه
سي علي بن عبد الله من أولاد موسى	=
سي الحاج عبد السلام بن خليفة (الماء الأبيض)	أولاد سيدي عبيد

ـــ جدول 2 : عدد أتباع الطريقة الرحمانية في منطقة تبسة سنة 1897[27]

أ) ـــ في الإقليم العسكري:

موقع الزاوية	عدد الإخوان	اسم أهم مقدمي الطريقة أو شواشها.
مرسط	160	محجوب سي الطيب بن محجوب: مقدم زاوية قابل هناده ببلدية واد شارف المختلطة.
تبسة	25	_

[26] ibid, pp. 154-155
[27] Depont, op. cit., pp. 392-393

ب) ــ في الإقليم المدني:

موقع الزاوية	عدد الإخوان	اسم أهم مقدمي الطريقة أو شواشها.
تبسة	12	سي محمد بن عبد الصمد: مقدم زاوية عين شفة ببلدية عين القصر المختلطة.

ـــــ جـــدول 3 : أتـــباع الـــزاوية الرحمانية في عهد المقدم سي الحاج السعيد بن باشطارزي[28]

موقع الزاوية	عدد المقدمين	عدد الإخوان
تبسة: الإقليم المدني	2	45

[28] Depont, ibid, p. 397

ـ جدول 4 : أتباع الزاوية في عهد أبناء سي عبد الحفيظ بن محمد[29]

موقع الزاوية	عدد الزوايا	عدد المقدمين	عدد الشواش	عدد الإخوان	عدد الأخوات	المجموع
تبسة: الإقليم المدني	1	1	12	300	13	326
دائرة تبسة: الإقليم العسكري	1	29	-	3353	116	3498

ـ جدول 5 : أتباع الزاوية في عهد الشيخ علي بن عثمان[30]

موقع الزاوية	عدد الزوايا	عدد المقدمين	عدد الشواش	عدد الإخوان	المجموع
تبسة: الإقليم المدني	-	1	6	230	237
مرسط	6	6	2	1300	1308

ثانيا، الطريقة التيجانية:

وتعرف أيضا باسم طريقة الأحباب. تنسب إلى سي أحمد بن سالم التيجاني.

[29] Ibid, p. 400
[30] Ibid, p. 405

تـــأتي هذه الطريقة في المرتبة الثانية بعد الرحمانية بمنطقة تبسة من حيث الأهمية، وعـــدد الأتـــباع حســـب "كاستيل". فقد ذكر أنها كانت تضم: « ... جميع أولاد العيساوي، وقسما كبيرا من العلاونه ـــ الذين كانوا يقيمون وراء جبال العنق، مع سي محمد بن منصر، شيخ تلك الطريقة الصوفية ... وأولاد رشاش[31] »؛ بالإضافة إلى أولاد سعد، وأولاد شامخ، وأولاد محبوب، وأولاد سيدي عبيد سواء المقيمين منهم في الجهة الشرقية أو الغربية لتبسة[32].

وبـــرأي الكاتب تكون الطريقة التيجانية قد: « تميزت في كل الأوقات بذهنيتها المتعصبة وغير المتسامحة [إزاء المحتلين بالطبع]، وبعنف آرائها ... وتعد في مركز تبسة، الطريقة الأكثر خطورة والأكثر مناهضة لهيمنتنا، وبسببها تأخر خضوع أولاد العيساوي وأولاد ســـي عـــبد المالـــك[33] »؛ خاصة وأن الأولين كانوا آخر من خضع للسلطة الاستعمارية الفرنسية في منطقة تبسة، بعد فشل تمردهم عليها في سنة 1897.

---

[31] Castel, op. cit., p. 111

[32] Ibid, pp. 155-156

[33] Ibid, p. 156

ـــــ جدول 1 : قائمة بأسماء مقدمي الطريقة التيجانية الأكثر تنفذا في المنطقة خلال ق. 19 م[34]

الاسم واللقب	الانتماء القبلي
سي محمد بن إبراهيم من أولاد جلال	برارشه
سي الفازع بن المكي من أولاد إبراهيم	=
سي الحاج معمر بن علي من أولاد سعد	علاونه
سي الحاج إبراهيم بن سلطان شيخ الزرادما	=

جدول 2 : أتباع الطريقة التيجانية في منطقة تبسة سنة 1897[35].

موقع الزاوية	عدد الزوايا	عدد المقدمين	عدد الشواش	عدد الأحباب	المجموع
تبسة: الإقليم المدني	-	1	-	50	51
دائرة تبسة: الإقليم العسكري	-	21	84	1584	1689

[34] Ibid, p. 157

[35] Depont, op. cit., pp. 337-338

ثالثا، الطريقة القادرية:

وتنسب إلى سيدي عبد القادر الجيلاني أو الكيلاني البغدادي. كان أشهر من انتمى إليها من القبائل الجزائرية قبيلة هاشم بالغرب الجزائري، التي تنتمي إليها عائلة الأمير عبد القادر.

وبعد انتهاء مقاومة هذا الأخير، و « انتقال زعماء فرع الطريقة الذي بدأ المقاومة إلى خارج الوطن، بقيت بقايا الطريقة في الجزائر في ظل بنادق الفرنسيين ... وظهرت فروع أخرى لها في شرق الجزائر وجنوبها، كان لها دور بارز أثناء غزو فرنسا للصحراء في النصف الثاني من القرن 19 م[36]. »

وبالنسبة للمنطقة مجال اهتمامنا في هذا العرض، نجد أن الطريقة القادرية كان لها مريدون كثيرون من تبسة، كما يروي "كاستيل"، خاصة في عهد المرابط سي محمد الشريف، الابن الخامس للشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف، الذي كانت له جهودا كبيرة في تطوير زاوية نفطة[37].

غير أن عددهم تلاشى بعد وفاة المرابط قبل قدوم الاستعمار بقرن؛ وفي سبعينيات القرن التاسع عشر، قدم إلى تبسة مقدم زاوية الكاف سي محمد الميزوني القادري، وسعى إلى إعادة الاعتبار للطريقة في المنطقة. ثم خلفه ابنه سي قدور، غير أنهما، حسب الرواية الفرنسية، لم يجندا إلا القليل من المريدين[38].

---

[36] سعد الله: مرجع سابق، ص. ص. 45-47.

[37] مرجع نفسه، ص. 48

[38] Castel, op. cit., p. 157

ـــ جدول 1: قائمة بأسماء المقدمين الأساسيين للطريقة القادرية في المنطقة خلال ق. 19 م[39]

الاسم واللقب	الانتماء القبلي
القاضي السابق سي خليفة بن صالح أولاد سعد	علاونه
سي بلقاسم بن سوحية من الزرادما	=

ويتبين من الجدول أسفله، أن عدد مريدي الطرق الصوفية في تبسة ظل إلى غاية مطلع القرن العشرين، موزعا بين الطرق الصوفية الثلاث السالفة الذكر مع وجود فارق عددي كبير بين أتباع الطريقتين الرحمانية والتيجانية وأتباع الطريقة القادرية؛ بالإضافة إلى تسجيل ارتفاع كبير في أعداد الإخوان المنتمين إلى الرحمانية والتيجانية في ظرف زمني قياسي. حيث قفز عددهم من بضعة عشرات إلى الآلاف في ظرف سبع سنوات، ولم نجد تفسيرا لتلك الظاهرة في ظل ما يتوفر لدينا من مراجع.

ويلاحظ على الطريقة القادرية، إلى جانب أنها كانت تضم أصغر عدد من الأتباع في تبسة، حدوث تراجع في عدد مريديها بين سنوات 1890 و1903، بينما سجلت الطريقتين الأخريين زيادة معتبرة.

[39] Ibid, p. 158

ـ جدول 2 : أتباع الطرق الصوفية في منطقة تبسة بين سنوات 1875- 1903[40]

السنوات	الطريقة الرحمانية			الطريقة التيجانية			الطريقة القادرية		
	عدد المقدمين	عدد الشواش	عدد الإخوان	عدد المقدمين	عدد الشواش	عدد الإخوان	عدد المقدمين	عدد الشواش	عدد الإخوان
1875	-	-	35	-	-	15	-	-	15
1882	-	-	2500	-	-	1500	-	-	200
1890	-	-	2500	-	-	1000	-	-	400
1903	23	116	3971	21	84	2005	5	20	350

[40] Ibid, p. 153

المبحث الثالث: دور الطرق الصوفية في المقاومة الشعبية التبسية.

خلـــص " كاستيل" بعد إحصاء الزوايا التي كانت متواجدة في تبسة إلى توجيه نصيحة صادقة إلى السلطة الاستعمارية ـــ خاصة وأنه أهدى مؤلفه إلى الحاكم العام ـــ دعاها فيها إلى خطورة تواجد مثل تلك الزوايا في المنطقة الحدودية الشرقية.

كمـــا نبه قيادته العليا، إلى: « ضرورة مراقبتها[أي الطرق الصوفية] عن قرب، ومـــتابعة مـــيولها، والتعرف على أعمالها ومآثرها، والتحرك إذا ما استدعت الضرورة لتدارك آثارها[41]. »

ومثل هذا الطرح يزيد في تأكيد قيادة الطرق الصوفية للمقاومة الشعبية الجزائرية خـــلال القرن 19 م.، وإضفاء الطابع الجهادي عليها، وتحملها عبء تحرير البلاد من الغـــازي الفرنســـي، وحماية الإسلام من الهجمة الصليبية الكاثوليكية، خاصة بعد أن ســـقطت حكومة الداي حسين، وانهزم جيشها النظامي، و: « فقدت طبقة الأجوَاد أو الأرستقراطية العسكرية اعتبارها[بعد فشل مقاومتها] بين الجماهير[42] ».

وسوف نستشهد فيما يلي بنماذج من مشاركة الطرق الصوفية الثلاث في جهاد أهل تبسة خلال القرن 19 م.

أ) ـــ دور الطريقة الرحمانية.

سنحاول في ظل غياب الوثائق وشح المصادر والمراجع عن دور الطرق الصوفية في جهـــاد أهـــل تبسة خلال القرن 19 م، إبراز دورها من خلال تحديد القبائل التي شاركت في مختلف المعارك التي دار رحاها فوق الأرض التبسية، خاصة وأننا حدّدنا من قبل الانتماء الطرقي لكل قبيلة.

---

[41] Castel, Idem.

[42] Meynier (G.) : « Histoire intérieure du F. L. N.», Casbah édits, Alger 2003, p. 43

تتفق المراجع الفرنسية التي اطلعنا عليها على أن أول مواجهة وقعت بين التبسيين وقـــوات الجيش الفرنسي كانت في وادي شبرو في صيف 1842. حيث شاركت فيها فرق من قبيلة أولاد سيدي يحي بن طالب، وقبيلة اللمامشا تحت قيادة الشيخ الحسناوي بـــن بلقاســـم. ويمكننا القول أن الطرق الصوفية الثلاث التي أشرنا إليها سابقا، والتي كانـــت في حـــال حرب مستمرة مع العدو في بقية مناطق الجزائر، قد شاركت فيها بفعالية، وحرضت أتباعها على الجهاد.

وفي صيف 1843، صدرت الأوامر إلى الجنرال براجي ـــ ديليي (Baraguey-d'Hilliers) بالتوجه إلى تبسة على رأس قوات من قسنطينة، للانتقام من قبيلة أولاد سيدي يحي التي ينتمي أغلب أبناؤها إلى الطريقة الرحمانية، لأنها كانت قد آوت الحاج أحمـــد بـــاي، وتنصّـــرت له في سنة 1839 أثناء هجومه على خليفته السابق، وعدوّه اللاحق الرزقي، الذي نقض عهده وتحالف مع جيش الاحتلال. حيث شاركت معه في الهجوم على أعدائه في تيفاش، واللحاق بهم في سوق أهراس، حيث هزمهم هناك[43].

وفي ســـنة 1846، وقعت معركة وادي الركل في شمال شرق تبسة، حيث تقع مضارب قبيلة أولاد سيدي يحي بن طالب، حقّق فيها مريدو الزاوية الرحمانية من أبناء قبيلة سيدي يحي بقيادة شيخهم علي بن بوحيطة، نصرا عظيما على قافلة جيش الغزاة.

وفي الســـنة نفسها وقعت معركة الدير الثانية، التي كانت مثالا للتضحية والفداء في ســـبيل الدفاع عن الوطن، حيث استشهد فيها، حسب الرواية الفرنسية، أكثر من 300 شهيد من فرقة الورفلة اليحياوية المنتمية إلى الطريقة الرحمانية.

---

[43] Cf, Rouquette: « Monographie de la commune mixte de Souk-Ahras », in Bulletin de la société de géographie d'Alger, Alger, 9e année, tome IX, 1904, p. 178, & Rozet et Carette: « Algérie », 2e, Editions Bouslama, Tunis 1980, op. cit., p. 182

وفي أكتوبـــر 1853، وقعت معركة بكاريا، التي تعد المعركة الثامنة التي تحدث فوق أرض تبسة، في سلسلة المعارك التبسية[44]، خاضتها فرقة من قبيلة أولاد سيدي عبيد كانت تقيم في بكاريا، بتحريض من إخوانهم اللاجئين في تونس.

وقـــد قـــاد المعركة أحد أشراف القبيلة كان مهاجرا في تونس، يدعى عمار بن قديدة[45].

وكـــان للطابع المرابطي لأولاد سيدي عبيد دور كبير في اندلاع تلك المعركة. حيث رفضت فرقتهم القاطنة في بكارية، الدخول في طاعة القايد الجديد الذي عينته لهم سلطة الاحتلال من خارج أبناء القبيلة. لأنهم كمسلمين لا يجوز لهم الدخول في طاعة مـــن والى الكافـــر. فـــ: « أولاد سيدي عبيد، الذين بقوا في الدائرة، يعتبرون أنفسهم أرفع نسبا بكثير من أهل بكارية، وقبلوا على مضض القايد الذي فرض عليهم[46]. »

ويمكنـــنا من خلال الرواية التي ذكرها فيرو عن وقائع المعركة، رغم ما فيها من مغـــالاة وتدلـــيس للحقائق معهود من ضباط جيش الاحتلال عن المعركة، تأكيد دور الـــزاوية الـــرحمانية في قيادة تلك المعركة. فقد ذكر أنه: « ... عندما اقتربوا قليلا من معســـكر العـــدو، وجدوا أن الشريف قد نضم رجاله عند سفح أحد التلال في هيئة مناوشين راجلين، بينما أقام هو مع فرسانه في مخفر أمام خيمته، ووضع جوقة الموسيقى العسكرية في الطليعة، مترقبا هكذا الهجوم بخطى ثابتة ... غنمنا خيمة الشريف، وثلاث

---

[44] راجع للمزيد من المعلومات عن تلك المعارك كتابنا: « نظرات فاحصة في تاريخ تبسة وجهاد أهلها في القرن 19 م: دراسة تاريخية من خلال المراجع الفرنسية»،دارالهدى،عين مليلة،الجزائر 2006.

[45] يقـــول فيـــرو عن هذا الثائر الجزائري: «*كان الشريف الذي دفع حياته ثمنا لتعصبه الطـــائش، يدعى عمار بن قديدة. ولد بتونس، وكان يبلغ من العمر ثلاثين سنة فقط. جند أنصاره من التوانسة المرتزقة المتعصبين، من الفراشيش، ومن أولاد سيدي عبيد بمنطقة الجريد. ادعى ابن قديدة ... أنه معصوم. كان يرتدي ثوبا جلديا كمثل الدرع، ويضع على رأسه خوذة نحاسية* ». أنظر كاستيل، مرجع سابق، ص. 106- 107

[46] Ibid., p. 104

رايـــات دينـــية كبرى، و 300 لافتة كانت ستوزع في الغد على العرب الثائرين، هذا بالإضافة إلى عدة بنادق، وخوذات نحاسية عتيقة جيء بها من بعض متاحف الزوايا[47].»

كمـــا يشـــهد الاعـــتداء الغاشم الذي تعرضت له زاوية سيدي عبيد بقنتيس، وضـــريح وليها الصالح في شهر نوفمبر 1871، على يد عساكر الاحتلال، على صدق كلامـــنا عـــن الطابع المرابطي الذي كان المحرك الأساس في مقاومة أهل تبسة، ودور الزاوية في عقد لواء الجهاد. فقد: « تعرضت تلك الزاوية، التي كانت مأوى للصوص، والـــنهاب، إلى التدمير الكلي، بما في ذلك ضريح سيدي عبيد، المشيد بأمر باي تونس سي علي، حيث نثرت رفات ذلك المرابط الكبير مع مهب الرياح[48].»

ب) ــ دور الطريقة التيجانية.

نـــرجح أن تكـــون معركة الجرف التي وقعت في سنة 1847، بين فرقة أولاد رشـــاش التيجانية بقيادة الحسناوي بن بلقاسم، والقوات الفرنسية المشكلة من السرايا الثلاث التي زحفت من خنشلة، وباتنة وعنابة، هي أول معركة يشارك فيها التيجانيون في منطقة تبسة.

وفي شـــهر جوان 1856، عندما قاد الشريف* ابن ناصر بن شهرة أولاد رشاش التيجانيين في حرب ضد الوجود الاستعماري بالمنطقة، استعان بأتباعه في منطقة الجريد التونسي في جلب الأسلحة، والذخيرة الكافية، وإعداد ما استطاع من قوة لمنازلة عدوه.

---

[47] Castel, Ibid, pp. 105-106

[48] Ibid, p. 180

(*) يعرف سعد الله " الشريف " بأنه الشخص: « *الذي ينتسب إلى الرسول ﷺ عن طريق ابنـــته فاطمـــة الزهراء (ض) ... وقد ظهر الأشراف في القرن الماضي ظهورا سياسيا وغيـــر سياسي، وكان بعضهم وراء الثورات. كانوا يعلمون الناس الطقوس والممارسات القريبة من التصوف ... أطلق بعض الباحثين اسم (الأشراف المزيفون) على الذين قاموا بالثورات ضد الفرنسيين* »؛أنظر مرجع سابق، ص.. 10-11

وتذكـــر الـــرواية التي أوردها "كاستيل" عن تلك الثورة، أن الأسلحة أرسلتها زاويـــة تماسين التيجانية، ونقلها شيخ الزاوية بنفسه إلى الثوار. مما يؤكد العلاقات المتينة الـــتي كانـــت ســـائدة بين المريدين التبسيين وشيخهم في تماسين، ويجعلنا نتصور أنهم استأذنوه في الجهاد فأذن لهم.

فقـــد جاء على لسانه: « ... دخلت إلى إقليم اللمامشا قافلة أسلحة، وذخيرة حربية، وسلع مهربة، كانت قادمة من تونس. وخوفا من أن تكون القافلة موجهة إلى ابـــن ناصر بن شهرة، فيقدم على إعلان الثورة فعلا، بينما قوات الدائرة كانت منشغلة في بـــلاد القبائل من جهة سطيف، هاجمها الرائد بونفالي يوم 24 ماي، على رأس قوة تـــتألف من 47 صبايحي، و20 فارس مستأجر من الأهالي. فاستولى عليها، ووجد بها 400 بندقية و5 قناطر من الذخيرة الحربية، وسلع مختلفة.

كانـــت القافلة مرفقة بالسوافة، وأناس من تماسين، من أتباع الشيخ محمد العيد زعـــيم طـــريقة الأحـــباب الصوفية، الذي كان في طريقه إلى مكة لأداء فريضة الحج. فأعـــيدت الســـلع إلى أصـــحابها، بهدف الاستفادة من نفوذ هاته الشخصية الدينية في الصحراء، بينما صودرت الأسلحة والذخيرة[49].»

وبالـــتالي يمكـــن القـــول بأن زعماء الطرق الصوفية كان لهم بالغ التأثير على تصرفات أتباعهم في تبسة سواء في السلم أو الحرب. ففي مطلع سنة 1860، لما همت بعـــض الأســـر من فرقة أولاد العيساوي بطلب الإذعان لسلطات الاحتلال. حاولوا الحصـــول على مبرر شرعي من زعيمهم الروحي. حيث: « استشاروا شيخ تماسين، زعـــيم طـــريقة الأحـــباب، في مسألة طلب العفو منا، وخيموا بين نقرين، وفركان، منتظرين وصول ردّه[50].»

---

[49] Castel, ibid, pp. 111-112

[50] Ibid, pp. 147-148

ج) ــ دور الطريقة القادرية في انتفاضة أولاد خليفة.

تعد انتفاضة أولاد خليفة التي حدثت في ربيع 1871، أهم الانتفاضات التي قادتها الطريقة القادرية في إقليم تبسة. وقد تجلى دورها بوضوح من خلال قيادة محي الدين نجل الأمير عبد القادر[51]، والثائر ابن ناصر بن شهرة لها.

فقد استغل هذين الشريفين فرصة ثورة أولاد خليفة التابعين للطريقة القادرية واندلاع الحرب البروسية ــ الفرنسية (1870-1871)، وما ترتب عنها من انعكاسات سلبية على الساحة السياسية إن في فرنسا أو في الجزائر المستعمَرة، ليدخلا إلى الجزائر قادمين من تونس على رأس قوات جنداها في زوايا الطريقة بتونس.

ففي شهر جانفي 1871، علم أهل تبسة كما تروي إحدى الروايات الفرنسية، بتواجد الشريف ابن ناصر بن شهرة عند السوافة، حيث « ... كان مصحوبا بحوالي 150 مناصر، من ضمنهم المدعو محي الدين بن الحاج عبد القادر[52]. » غير أنهم، تضيف الرواية، كانوا منشغلين عنهما بتداعيات الحرب في أوربا، والجزائر.

وعندما أعلن أولاد خليفة في يوم 5 مارس، انتفاضتهم على سلطة الاحتلال بإقليم تبسة، بسبب الخلاف الذي وقع بين بعض عمالهم الزراعيين بالشريعة وصاحب العمل المستوطن " كامبون ". ثم هاجموا في يوم 7 مارس، القائد الأعلى " مارشان (Marchand) "، أثناء قيامه بإحدى الاستطلاعات في رفانة[53]، انتقل إليهم الزعيمان:

---

[51] يقول الأستاذ سعد الله في أسباب قدوم ابن الأمير عبد القادر إلى الجزائر: « *لا نستغرب أن يكون محي الدين بن الأمير عبد القادر قد جاء إلى الجزائر سنة 1870-1871 لإثارة شعبها ضد فرنسا، تحت تأثير أخيه محمد السعيد شيخ القادرية*» أنظر كتابه تاريخ الجزائر الثقافي، ص. 45

[52] Castel, op. cit., p. 169

[53] Ibid, p. 172

ابـــن ناصـــر بن شهرة[54]، ومحي الدين بن عبد القادر، ونزلا في قرية نقرين في جنوب تبسة.

ونرجح أن يكون قدومهما إلى مضارب اللمامشا قد تم بطلب من أولاد خليفة، بعد أن رأوا فتورا من بقية أبناء القبيلة في الانضمام إلى ثورتهم. فأرادوا أن يضفوا على ثـــورتهم طابعا جهاديا بإشراك الشريفين فيها، وإثارة حماس أتباع الطريقة القادرية في تبسة.

يقـــول " كاستيل" في هذا الصدد: « اعتزم أولاد خليفة لما شعروا بعدم التحاق بقـــية اللمامشا بهم، الاستفادة من وجود هذين المغامرين في جنوب الدائرة. فانتقلوا إلى نقرين لملاقاتهما. بايعوا ابن عبد القادر شريفا، ثم جاءوا به ثانية إلى الدكان لبضعة أيام، جـــاذبين معهـــم الفـــرق التي التقوا بها، ومبشرين بقدوم جيش تركي كبير من تونس لمساندة الشريف.

دفـــع ابـــن الأمـــير اللمامشا، إلى الاعتقاد في إمكانية استعادة المسلمين الجزائر بســـهولة. فالحكـــومة الفرنسية (في نظرهم) لا تتوفر على العساكر، والاضطرابات قد عمـــت كـــل جهات الإقليم. كما جعلهم يعتقدون، أن الأمير عبد القادر سيعود إلى الـــبلاد، ويســـتولي علـــيها مجددا؛ وادعى أنه كلف من قبل والده بقيادة الانتفاضة في المقاطعة، غير أنه لم يحدد التعليمات الخاصة التي من المحتمل أنه تحصل عليها.

كان من المفترض أنه سيعين بايا على قسنطينة، مما سيجعله في وضع يقدر معه على مكافأة الذين من حوله على خدماتهم. فوعد في هذا الصدد، الشخصيات النافذة، بوظائف مهمة، كل حسب مركزه[55] ».

---

[54] راجع عن هذه الشخصية ودورها في المقاومة الشعبية، كتاب يحي بوعزيز: « ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين» ط. 1، دار البعث، قسنطينة 1980، وكتاب:
Rey-Goldzeiguer (Annie) : « Le Royaume arabe », S.N.E.D, Alger 1977

[55] Castel, op. cit., pp. 172-173

ويتبين من الرواية الفرنسية أن الأمير محي الدين ما قدم إلى الجزائر إلا لتنفيذ مشروع تحرري يكون قد أُعد في المشرق العربي، حيث تتمركز فيه قيادة الطريقة القادرية، وتنتشر فيه أفكار الجامعة الإسلامية.

لقد ظلت تونس وبالأخص المناطق التي تنتشرها بها الزوايا الرحمانية والقادرية مثل زوايا نفطة وتوزر والكاف، تمثل للثوار الجزائريين ملاذا آمنا، ومستودعا هاما للذخائر والعتاد الحربي.

وبعد فشل انتفاضة أولاد خليفة الأولى بزعامة نجل الأمير عبد القادر والشريف ابن ناصر بن شهره في تحقيق أهدافها، وانتقال أبناء تلك الفرقة اللموشية إلى تونس، تناقلت إلى أسماعهم في منتصف شهر أوت 1871، أخبار ظهور رجل ثائر من الأشراف في منطقة نفطة، يدعى محمد بن عبد الله[56] ، الذي كان يسعى إلى: « تنفيذ مخططه الأول الذي أعدّه، والمتعلق بإثارة سكان الدائرة ... استقبل أولاد خليفة، الذين كانوا في حاجة إلى أمثال هذا الزعيم، قدوم هذا المغامر إلى نفطة بحماس شديد، وأرسلوا إليه في التو وفدا يدعوه إلى تزعمهم.

لم يتأخر عنهم الشريف، إذ عبر الحدود الفرنسية ... وفي يوم 22 أكتوبر، وصل محمد بن عبد الله إلى رأس العش أين يقيم أولاد خليفة ... رغب عن سلك الطريق، الذي رسمه محي الدين بن عبد القادر خلال فصل الربيع، وبدلا من أن يتوجه صوب تبسة، انتقل إلى منطقة الجبال الغربية، وأقام في الوادي الضيق، والوعر لواد هلايل، حيث سعى إلى اجتذاب اللمامشا إليه[57]. »

وفي يوم 30 سبتمبر عاودت القوات الفرنسية الهجوم، لكنها منيت بهزيمة نكراء، إذ لم تصمد أمام قوة المجاهدين سوى نصف ساعة، ولاذت بالفرار وتشتت جمعها[58].

---

[56] راجع دوره في المقاومات الشعبية كتاب يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص. 121-132

[57] Castel, op. cit., pp. 177-178

[58] Ibid, p. 179

انعكـــس ذلك الانتصار إيجابيا على بعض الفرق التبسية، حيث انضم إلى أولاد خليفة سكان زاوية سيدي عبيد المعروفين بطابعهم المرابطي، وآزروا الشريف محمد بن عـــبد الله: « بفضـــل دســـائس مقدم الزاوية، بلقاسم بن محمد[59] »، وسعى زعيمهم خُـــرَيّفْ، إلى جـــر أطراف جديدة وإشراكها في ثورتهم، مثل قبيلة أولاد رشاش ذات الانتماء التيجاني، وفرقة أولاد نونة العبيدية ذات الانتماء القادري، والتي حرضها محمد البليدي مرابط بكارية، وشجعت على تنامي الانتفاضة[60].

ويتـــبين مـــن التخريب الذي تعرضت له زاوية سيدي عبيد في نوفمبر، على يد الجـــيش الفرنسي، كما تقدم معنا ؛ والعقوبات التي سلطت على سكانها، أهمية الدور الذي لعبته الطرق الصوفية في تحريض مريديها التبسيين على الجهاد، وتحقيق النصر على المحتل الغاشم، الذي حمّلها كل المصاعب التي واجهته في بسط سيادته على المنطقة.

---

[59] Idem.

[60] Castel, ibid, p. 184

خاتمة:

هكذا يتبين لنا من خلال هذه البحث المختصر، أهمية الدور الذي لعبته الطرق الصوفية في إذكاء روح الجهاد بين أتباعها في منطقة تبسة خلال القرن التاسع عشر، وتنوّع وسائل مقاومتها، مما دفع بمخططي الاستعمار الفرنسي إلى« ضعضعة وحدة الطريقة الخطيرة في نظرهم، بجعلها تتفرع إلى فروع، وعدم تبعية فروعها إلى شيخ واحد،مثلما فعل مع الرحمانية بعد1857و1871،والقادرية والدرقاوية والتيجانية[61].»

ونـــود لفت عناية القارئ إلى أن الحكم على الطرق الصوفية بأحكام مسبقة، « يحـــرم المرء من الموضوعية ويجعله لا يرى فيما يقرأ إلا ما يشهد لفكرته التي في رأسه، ويلجـــئه هذا المنهج إلى تأويل ما يراه على غير ما يهوى إلى ما يؤيد فكرته، حتى ولو خالف أظهر قواعد التفكير ومناهج البحث ».

وبـــذلك يبخسها أشياءها، ويعمى عنه دورها في نشر الثقافة والتعليم الديني في أوساط شعبنا، في فترات الجهل والانحطاط؛ وحفاظها على مقومات الأمة من هجمات الصـــليبيين، ومـــن إهمال الحكام الأتراك، ودفاعها عن الأرض والعرض: « في الوقت الـــذي تخاذلت فيه السلطة الزمنية على يد الزعماء العثمانيين من أمثال الداي حسين، وبـــاي وهران حسن بن موسى، والتيطري مصطفى بومزراق، وعلى يد رجال المخزن أمثال مصطفى بن اسماعيل في غرب البلاد وفرحات بن سعيّد في شرقها[62]. »

والحكم ذاته يسري على الذين لا ينظرون في ماضي الطرق الصوفية، إلا لفترة

---

[61] سعد الله: مرجع سابق، ص. 31- 32

[62] مرجع نفسه، ص. 34

الهيمنة الاستعمارية على البلاد والعباد، وما انجر عنها من انحطاط ثقافي وضعف ديني؛ ولا يقرؤون تراثها إلا لإدانته أولاً وقبل كل شيء.

وفي النهاية لا يسعني إلا ترديد المثل العربي القائل: " يا إبلي عودي إلى مَبَارِكِك".

البيبليوغرافيا:

1-المراجع العربية :

عـــبد الرحمان بن خلدون: « مقدمة ابن خلدون »، الجزء1، ط. 5، دار القلم، بيروت 1984

سعد الله أبو القاسم: « تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الرابع: 1830- 1954 »، دار الغرب الإسلامي، ط.1، 1998

فيلـــيب لوكا وجون كلود فاتان: « جزائر الأنثروبولوجيين نقد السوسيولوجيا الكولونيالـــية.» تـــر، محمـــد يحياتن، بشير بولفراق، وردة لبنان، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال

يحـــي بوعزيز: « ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين» ط. 1، دار البعث، قسنطينة 1980

2-المراجع الفرنسية:

Depont (O) & Coppolani (X): « Les Confréries Religieuses Musulmanes», Jourdan imp-lib, Alger 1897

De NEUVEU (P. E): « Les Khouans, ordre religieux chez les musulmans de l'Algérie », imp. Guyot, Paris 1845, Jourdan, Alger 1913

BROSSELARD (C). « Les khouans. De la constitution des ordres religieux musulmans en Algérie», Tissier, Alger, 1859

SALHI Brahim: Site internet.

Rinn (L) : « Marabouts et Khouan, étude sur l'Islam en Algérie », Jourdan Lib-édit., Alger 1884

Le général P. J. André: « Contribution à l'étude des confréries religieuses et musulmanes », La Maison des livres, Alger 1956

Bulletin Officiel, année 1907, n° 1859, Imp., Fontana, Alger 1908

Castel (Pierre): " TÉBESSA, Histoire et Description d'un Territoire Algérien" t. 1er, Henry Paulin et Cie, Éditeurs, Paris 1904
Meynier (G.) : « Histoire intérieure du F. L. N.», Casbah édits, Alger 2003
Bulletin de la société de géographie d'Alger, Alger, 9e année, tome IX, 1904
Rozet et Carette: « Algérie », 2e, Editions Bouslama, Tunis 1980
Rey-Goldzeiguer (Annie) : « Le Royaume arabe », S.N.E.D, Alger 1977